ميّ زيادة

١٨٨٦ – ١٩٤١

أطلقت على ميّْ زيادة صفة النبوغ في كثرة من الكتب والكتابات، التي صدرت بعد وفاتها. لكن هذه الصفة كانت قد أطلقت عليها وهي في أوج عطائها، وفي أوج مجدها. وأنشأت منتدى ثقافياً شارك فيه كبار الأدباء العرب ممن عرفوها وقرأوا لها واستمعوا إلى محاضراتها. وكان ذلك المنتدى هو الذي هيّأ لميّْ أن تلتقي بالعديد من الأدباء، وأن تقيم علاقة صداقة تعددت مستوياتها، وصولاً ببعضها إلى حدود الحب المتبادل. وجدير بالذكر أن ميّْ تبادلت الرسائل مع عدد كبير من أدباء عصرها في مصر ولبنان، وفي المغتربات الأميركية. أذكر من هؤلاء الكبار جبران خليل جبران وأمين الريحاني في المغتربات. أما أدباء مصر وشعراؤها وكبار مفكريها فأذكر منهم عباس محمود العقاد ولطفي السيد ويعقوب صروف وأنطون الجميل ومصطفى صادق الرافعي. لكن الرسائل المتبادلة بين ميّْ وجبران خليل جبران هي الأكثر إثارة للإهتمام، والأكثر إثارة للبحث عن مدى العلاقة التي ربطت بين هذين القطبين الكبيرين من المثقفين العرب في النصف الأول من القرن العشرين. وهي علاقة لم تقترن بأي لقاء بينهما. إلا أن بعض الكتابات عن سيرة ميّْ تشير إلى أن علاقة خاصة كانت قائمة بينها وبين العقاد، من دون تفاصيل تحدد طبيعة تلك العلاقة. ولم أعثر في المراجع التي توفرت لديَّ عن ميّْ على معلومات محددة حول طبيعة علاقاتها مع العديد من أدباء عصرها، لا سيما الذين تبادلت معهم الرسائل. لكنني لا أستطيع إلا أن أتوقف بكثير من الحيرة أمام تلك الرسائل الكثيرة العدد على امتداد ما يزيد عن خمسة عشر عاماً بينها وبين جبران خليل جبران. والملفت في هذه الرسائل عمق العلاقة، وعمق الصداقة، وكثرة المواضيع الأدبية والإنسانية التي تطرّق إليها كل منهما. والأكثر إثارة للدهشة والحيرة هو ما جاء في رسائل جبران، التي سأقدم فيما بعد نماذج منها للتدليل على ما أقول.

يخرج المرء من قراءة سيرة ميٌ باندهاش من الإهتمام الكبير الذي لقيته في مصر على امتداد حياتها. ولا يعود ذلك الاهتمام إلى إبداعها الأدبي وحسب، بل إلى كونها تميزت بالشجاعة في الاعراب عن مواقفها بحرية. ساعدها في ذلك كونها مسيحية لبنانية. وتفوقت بجرأتها وبرفضها للتقاليد السائدة على زميلاتها المصريات من أمثال الرائدة "باحثة البادية" (ملك حفني ناصف)، باستثناء ما كانت قد قامت به هدى شعراوي رائدة حركة نهضة المرأة في مصر وفي العالم العربي في العقد الثاني من القرن العشرين ومعها صديقتها سيزا نبراوي. وقادت ميٌ مواقفها وكتاباتها ومجمل نشاطها إلى أن تصبح موضع الاهتمام المشار إليه. وتؤكد رسائل جبران إلى ميٌ على أنها كانت تستحق ذلك الإهتمام بها كامرأة نهضوية وكأديبة مميزة واسعة الثقافة. فهي كانت مبدعة في أدبها، وفي نقدها الأدبي والإجتماعي. وكانت، في الوقت عينه، رائدة كبيرة في تحقيق نهضة المرأة وفي تحريرها من القيود والتقاليد التي كبّلتها على امتداد قرون.

كانت كتاباتها تتناول شتى المواضيع الأدبية والإجتماعية وحتى الفكرية والسياسية في بعض الأحيان. ويدخل في باب الفكر السياسي مقالها الشهير حول الإشتراكية الذي أقتطف منه ما يشير إلى دقة متابعتها لحركة الفكر في العالم العربي وفي العالم. تقول ميٌ في مقال بعنوان "الإشتراكية السلمية"، نشرته في جريدة "الأهرام": "الإشتراكية السلمية كالثورية ترمي إلى تغيير النظام القائم ولكن بوسائل غير حادة، بل بإدخال أعضائها في الهيئات النيابية والإدارية والقضائية، يعدلون ما أمكن تعديله. ثم يكثر عددهم مع الزمن حتى تصبح يوماً أعنة الشؤون في أيديهم. فيسنون نظامهم وينفذونه دون استباحة أرواح وسفك دماء. ولقد ولدت الروح الإشتراكية الجديدة مع الديمقراطية الجمهورية في الثورة الفرنساوية التي استفزت في آن واحد الحماسة الوطنية وحماسة توحيد جميع الأوطان. وظلت تلك الروح نامية في فرنسا وسويسرا وانجلترا وألمانيا حتى خطا بها لوي بلان (Louis Blanc) صديق فكتور هيغو، خطوة واسعة

سنة ١٨٣٩. إذ أعلن أن غايتها هي حماية العامل من جور صاحب العمل وجعل هذا قادراً على الإنتاج مستقلاً في ما سماه المعمل الإجتماعي... ويصح أن يذكر في سياق الكلام على الإشتراكية السلمية "الحزب الإشتراكي المصري" الذي أعلن بروغرامه في شهر أغسطس المنصرم (١٩٢١)".

لا بد، إذن، من الإقرار لهذه الأدبية بما تستحقه من تقدير منحها إياه أدباء عصرها، وكرره وفاءاً لها كثرة من الأدباء المعاصرين وفي مقدمتهم الأديبة السورية سلمى الحفار الكزبري والأديب اللبناني جميل جبر. واستحضار سيرتها منذ نشأتها حتى وفاتها سيكون شاهداً على ما قاله بشأنها الأدباء في حياتها وبعد وفاتها. وهي سيرة تعدد رواتها، من دون أن يختلفوا في الأساسيات فيها. وسأعتمد على أربع روايات، الأولى للأديبة سلمى الحفار الكزبري والثانية لجميل جبر والثالثة لسميحة كريّم والرابعة لأحمد أصفهاني، وهي الرواية التي يستحضر فيها المؤلف سيرة ميْ الصحافية.

ولدت ميْ (ماري) زيادة في مدينة الناصرة في فلسطين في عام ١٨٨٦. والدها هو الياس زخور زيادة من أبناء منطقة كسروان في جبل لبنان. مارس التعليم في مدينة الناصرة، ثم انتقل بعدها إلى القاهرة لممارسة العمل الصحفي فيها. أما والدة ميْ فهي نزهة معمر، فلسطينية الأصل، كانت معروفة باهتمامها بالشعر العربي.

بدأت ميْ دراستها في مدرسة الراهبات في الناصرة. ثم انتقلت من تلك المدرسة وهي في سن الرابعة عشرة من عمرها إلى مدرسة راهبات الزيارة في بلدة عينطورة في منطقة كسروان في جبل لبنان في القسم الداخلي بعيداً عن أهلها قبل أن ينتقلوا إلى مصر. وتميزت، وهي طالبة، بحسها الموسيقي وبميلها إلى الغناء والشعر والتمثيل. لكن كآبة رافقتها وهي في السادسة من عمرها عندما توفي شقيقها، وكان لا يزال في الثانية من عمره. وبدأت تناقضات شخصيتها تبرز

في سلوكها وهي طالبة. إذ جمعت بين الكآبة ورهافة الحس وسرعة الإنفعال، وبين حدة الذكاء وأنس المعشر والطموح إلى الأرقى. وتعترف ميْ في يومياتها أنها كانت تشعر، خلال وجودها في مدرسة عينطورة، بالوحشة في أيام الأعياد، وحيدة بعيدة عن أهلها، برفقة الكتب والروايات والقصص والبيانو. تقول في هذه اليوميات:"ما كدت أمس أصابع العاج حتى سحبت يدي!. ما أشد البرد في البيانو، بل البرد في يديّ وفي روحي، البرد في وحدتي وفي غربتي. إني جليد. لكنني جليد يتعذب. وأشعر بأن كل ما في هذا الدير جليد حي، ينبض يتعذب ويبكي".

ولأنها كانت قد بدأت تتقن اللغة الفرنسية فقد تعرفت إلى رموز الأدب الرومانسي، لا مارتين الفرنسي وبيرون الإنكليزي، فقد حاولت في يومياتها في عينطورة أن تقلدهم. وتعبّر في يومياتها عن مشاعرها إزاء التغيرات التي كانت تأتي بها فصول السنة، معربة عن كرهها للشتاء وعن حبها للشمس. تقول في اليوميات:"الشمس لم تشرق اليوم. إنها تختفي وراء الغيوم وتتلفع بدثار من الأسرار. الجو رمادي الأديم والأفق متشابه الألوان في جميع جهاته، والأرض مغتمة حسرى، والمطر على وشك الإنهمار. هذا الطقس يلقي على نفسي غشاء من الإكتئاب والتخدر. عندما يكون الجو رمادياً كذلك يكون وجداني. إني أؤثر الشمس بازغة تبهج العالم. والسماء أؤثرها صافية فهي أفضل عندي من أن أرى الرياحين منكسة الرؤوس والورود ذابلة الكؤوس تحت دفق المطر".

في عام ١٩٠٧ انتقلت عائلة ميْ من الناصرة إلى القاهرة. وكان على ميْ أن تترك لبنان وجباله وشطآنه، بعد أن كانت قد ألفت العيش في ربوعه وأحبته، وصار جزءاً مكوناً من حياتها. فكتبت، وهي تودع لبنان، كلمات مؤثرة جاء فيها:"يصعب عليّ أن أبتعد عن مكان قضيت فيه أياماً أو بعض ساعات فكيف لو قضيت فيه سنوات. ذلك لأني أترك فيه فلذات من صميمي،

بعضاً من ذاتي أحن إليه... لبنان وطني والناصرة مسقط رأسي، أما مصر فمغامرة في المجهول".

باكورة أعمال ميّ الأدبية ديوان شعر بالفرنسية بعنوان "أزاهير الحلم" لم توقعه باسمها. بل اختارت لنفسها اسماً غربياً هو Isis Copi.. وإيزيس هي آلهة مصرية ترمز إلى العذراء مريم. أما كوبي فهي الترجمة اللاتينية لكلمة زيادة. لكنها عندما بدأت تكتب بالعربية اختارت اسماً عربياً مكوناً من الحرف الأول من إسمها وحرفاً من اسم عائلتها، هو "مي". وبهذا الإسم اشتهرت كأديبة، وكشاعرة، وككاتبة صحفية، وكشخصية اجتماعية، وكصاحبة منتدى أدبي. وكانت كتاباتها الأولى في مجلة "المحروسة" التي كان والدها يدير تحريرها، ثم أصبحت هي بعد وفاة والدها المسؤولة عن تحريرها. كما كانت تكتب في مجلات وصحف أخرى من بينها مجلة "المقتطف" لمؤسسها يعقوب صروف، الذي نشأت بينها وبينه علاقة صداقة، وجريدة "الأهرام" التي كان يدير تحريرها أنطون الجميل، الذي صار أيضاً من أصدقائها.

في عام ١٩١١ زارت ميّ بلدها لبنان الذي تعشقه لقضاء عطلة الصيف في ربوعه. واختارت بلدة ظهور الشوير الجبلية مكاناً لإقامتها. وبنت كوخاً أخضر ليكون البيت الذي تمارس فيه عزلتها مع الطبيعة. وكانت قد سبقتها إلى لبنان شهرتها كأديبة معروفة. وكانت في تلك الفترة من حياتها الأدبية قد اطلعت على كتابات جبران خليل جبران واستهواها أسلوبه. كما أطلعت على كتابات أمين الريحاني وأعجبت بها. وكان الريحاني قد زارها في كوخها ودعاها مع أبويها لزيارته في صومعته في بلدة الفريكة.

في عام ١٩١٣ قررت الجامعة المصرية إحياء حفلة تكريم لشاعر القطرين خليل مطران. وطلب من جبران خليل جبران المشاركة في التكريم. فأرسل كلمة كلف ميّ بأن تقرأها بالنيابة عنه لتعذر حضوره شخصياً. وشكل وقوف ميّ خطيبة في مهرجان التكريم ذاك حدثاً بالنسبة

لأدباء عصرها. إذ كانت أول امرأة تقف على منبر في حفل أدبي كبير من ذلك النوع برفقة عدد من كبار الأدباء. ثم أنشأت ميّ بعد ذلك منتدياً أدبياً كانت تستقبل فيه كبار الأدباء من مصر ومن سائر البلدان العربية يتباحثون في شؤون الفكر والأدب والثقافة والمجتمع، ويتبادلون الآراء في نتاجهم في شتى ميادين الأدب والمعرفة. وكان من رواد ذلك المنتدى ولي الدين يكن وطه حسين وأنطون الجميل ولطفي السيد ومصطفى عبد الرازق وخليل مطران وعباس محمود العقاد ومنصور فهمي وشبلي الشميل ومصطفى صادق الرافعي ويعقوب صروف. كما كان من بين أولئك الرواد مستشرقون.

في مطالع عام ١٩٣٠ أصيبت ميّ بعدة نكبات الواحدة منها تلو الأخرى. إذ مات صديقها يعقوب صروف. ثم مات صديقها الأكبر جبران خليل جبران. ومات في الوقت ذاته أبواها. فأحست بالإختناق. وازدادت إحساساً بالوحدة وبالعزلة. فلجأت إلى منزلها لا تغادره. ولم تعد تلتقي إلا بمن كانوا يزورونها في منزلها. وكان من بينهم طه حسين. وكان كلما زارها يلح عليها بالخروج من منزلها للتنزه. وذات يوم قبلت دعوته واشترطت عليه أن يرافقها إلى الأهرام وإلى نصب أبي الهول. واستجاب طه حسين لطلبها.

عندما اشتدت على ميّ السويداء طلبت من نسيبها الدكتور جوزيف زيادة أن يأتي إليها في القاهرة ليصطحبها معه إلى لبنان. وفور وصولها إلى لبنان طبّق عليها أنسباؤها الحجر. وظلت فترة من الزمن حبيسة في منزل نسيبها جوزيف زيادة. ثم نقلت من دون إرادتها إلى مستشفى "العصفورية" المعروف في لبنان، المخصص للأمراض العقلية. وإذ أدركت أنها نقلت إلى ذلك المكان ثار ثائرها. ولم تستطع الخروج منه إلا بعد حملة قام بها بعض المثقفين وفي مقدمتهم أمين الريحاني، وإثر حملة إعلامية واسعة. ولدى خروجها من المستشفى أقامت بالقرب من الجامعة الأميركية في عزلة تامة. ولم تستقبل في منزلها إلا بعض من كانوا أوفياء لها.

وبعد فترة من الزمن دعاها أمين الريحاني إلى منزله في بلدة الفريكة. لكنها لم تبق طويلاً هناك. إذ انتقلت إلى منزل قريب من منزل الريحاني. وكانت قد دونت انطباعاتها عن وجودها في مستشفى الأمراض العقلية بعنوان "ليالي العصفورية".

في عام ١٩٣٨ دعيت إلى إلقاء محاضرة في الجامعة الأميركية بعنوان "رسالة الأديب إلى الحياة العربية". فأذهلت الحضور، وأعادت تلك المحاضرة إليها مجدها بعد أفول لم يدم طويلاً.

عادت ميّ إلى القاهرة من رحلة العذاب التي قضتها في لبنان. لكنها حملت معها إلى القاهرة عذاباتها وأحزانها. فاختارت منزلاً متواضعاً ركنت إليه. ولم تستقبل فيه إلا القليلين من أصدقائها.

لم تعش ميّ طويلاً بعد تلك المأساة التي واجهتها. وكانت تدرك، وهي منعزلة في منزلها ذاك، أنها تقترب من نهايتها. فكتبت ترثي نفسها:"وجيع، وجيع مشهد دموع اليأس في المرأة الصعبة الباردة". وغادرت الحياة في عام ١٩٤١، وبالقرب من سريرها أربعة كتب هي "غرازييلا" و"دليل حلمي التائه" و" صورة دوريان غراي" وكتابها الذي كانت قد أصدرته عن صديقتها الأديبة المصرية "باحثة البادية".

سيرة ميّ المضطربة هذه تشير إلى شخصية امرأة من نوع مختلف. لم تكن ميّ امرأة متحررة وحسب، ولم تكن أديبة وشاعرة وناقدة أدبية وحسب. كانت شخصية متعددة الأطوار ومتعددة المواهب الأدبية والإجتماعية. وكانت تحمل في تمردها وفي تعدد شخصيتها أحلام المرأة الطامحة إلى التحرر، وأحلام الإنسان العربي الطامح إلى الحرية والتقدم. وهي سمات يستطيع المرء أن يقرأها من دون جهد في كتاباتها التي تعددت منابرها الإعلامية والثقافية. وهي سمات تظهر بوضوح في رسائلها إلى أصدقائها من الأدباء والمفكرين، سواء منهم أولئك الذين كانوا من أبناء جيلها، أم الذين كانت تعتبرهم أساتذتها الذين كانوا من أبناء جيلها وهم جبران

خليل جبران وأمين الريحاني وعباس محمود العقاد وآخرون. أما الذين خاطبتهم كأساتذة لها فهم لطفي السيد ويعقوب صروف. والغريب فيما كتب عن ميْ أن كل الذين كتبوا أبحاثاً وأنشأوا كتباً عنها كانوا يكتفون بالتركيز على جانب معين من سماتها ومن نشاطها ويعتبرون ذلك الجانب الأهم في شخصيتها. فهي كانت شاعرة أساساً بالنسبة إلى البعض. وكانت أديبة بالنسبة إلى بعض آخر. وكانت صحافية بالنسبة إلى بعض ثالث. لكنها كانت، بالنسبة إلى جميع هؤلاء، امرأة متحررة مقدامة وذكية. وكانت تتميز، في الوقت عينه، بحس فني رفيع. كانت تعشق الموسيقى. وكان لها رأي في الموسيقى كفن رفيع. وكانت تعزف على البيانو وعلى العود. لكنها، فوق كل ذلك، كانت رائدة نهضة نسائية. التقت مع باحثة البادية، وألفت كتاباً عنها. والتقت مع هدى شعراوي وسيزا نبراوي المصريتين، وجوليا طعمه الدمشقية، اللواتي كنّ رائدات في نهضة المرأة وفي الدفاع عن حقوقها وعن حريتها وتحررها، وعن الدور الذي يعود لها في المجتمع.

كل ذلك صحيح. لكنني أعتبر أن مراسلاتها مع أصدقائها من أدباء عصرها تشكل جنساً أدبياً يستحق أن يدرس. ففي رسائلها هذه، وفي إجابات أصدقائها على تلك الرسائل، يستطيع القارئ أن يكتشف من دون جهد أدباً رفيعاً. غير أن من المهم في الوقت عينه أن نرى في تلك الرسائل روح المرأة الباحثة عما لا تستطيع أن تحدده دائماً بوضوح. فهي تحب ولا تحب! ولعل أعمق مشاعر الصداقة المقترنة بالتقدير نجدها في رسائلها إلى أمين الريحاني، الذي كان له الفضل الأكبر في تحريرها من سجنها في مستشفى الأمراض العقلية. وأذكر أسماء الذين تبادلت ميْ الرسائل معهم: باحثة البادية وجوليا طعمة ويعقوب صروف والأب أنستاس الكرملي ولطفي السيد ومصطفى صادق الرافعي وخليل مطران وولي الدين يكن وشبلي الشميل وشبلي الملاط وأحمد حسن الزيات وتوفيق الحكيم وجبر ضومط وخليل مردم وإميل زيدان وشكيب

أرسلان وكامل الكيلاني وفؤاد صروف وأنطون الجميل ومصطفى عبد الرازق وخير الله خير الله والشاعر القروي وأنيس المقدسي وعدد كبير من المستشرقين.

غير أن أكثر ما يلفت النظر في مجموع مراسلاتها تلك الرسائل التي تعددت بينها وبين جبران خليل جبران. فقارئ هذه الرسائل من ميٌّ إلى جبران ومن جبران إلى ميٌّ يكتشف، إلى جانب القضايا الأدبية والإنسانية والإجتماعية والآراء العامة لكل منهما بشأنها، أن ثمة حباً حقيقياً بينهما. وكانت المسافة الفاصلة بين القاهرة وبوسطن ونيويورك هي التي جعلت ذلك الحب أقرب إلى الحب العذري، الحب الذي لا يتحقق إلا في الروح.

تقول في رسالة لها إلى جبران في عام ١٩١٢: "إننا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران. أنا أحترم أفكارك، وأجل مبادئك، لأنني أعرفك صادقاً في تعزيزها مخلصاً في الدفاع عنها، وكلها ترمي إلى مقاصد شريفة. وأشاركك أيضاً في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة. فكالرجل يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشبان تابعة في ذلك أميالها وإلهاماتها الشخصية، لا مكيفة حياتها في القالب الذي اختاره لها الجيران والمعارف. حتى إذا ما انتخبت شريطاً لها، تقيدت بواجبات تلك الشركة العمرانية تقيداً تاماً. أنت تسمي هذه سلاسل ثقيلة، حبكتها الأجيال، وأنا أقول أنها سلاسل ثقيلة، نعم. ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة ما هي. فإن توصل الفكر إلى كسر قيود الإصطلاحات والتقاليد، فلن يتوصل إلى كسر القيود الطبيعية لأن أحكام الطبيعة فوق كل شيء. لم لا تستطيع المرأة الإجتماع بحبيبها على غير علم من زوجها؟ لأن باجتماعها هذا السري، مهما كان طاهراً تخون زوجها وتخون الإسم الذي قبلته بملء إرادتها وتخون الهيأة الإجتماعية التي هي عضو عامل فيها".

وتقول في رسالة إلى جبران في عام ١٩٢٤: "جبران! لقد كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد كلمة الحب. إن الذين لا يتاجرون بمظهر الحب ودعواه في السهرات والمراقص

والإجتماعت يلمس الحب في أعماقهم قوة دينميتية رهيبة قد يغبطون الذذين يوزعون عواطفهم في الأداء السطحي لأنهم لا يقاسمون ضغط العواطف التي لم تتفجر، ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنوها لنفوسهم، ويفضلون وحدتهم ويفضلون السكوت ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها، والتلهي بما لا علاقة له بالعاطفة. ويفضلون أي غربة وأي شقاء– وهل من شقاء وغربة في غير وحدة القلب، على الإكتفاء بالقطرات الشحيحة؟".

وتقول في رسالة لجبران في عام ١٩٢٥: "لا أريد أن تكتب لي إلا عندما تشعر بحاجة إلى ذلك، أو عندما تنيلك الكتابة سروراً". وهي بذلك تريد أن تؤكد على استقلالية وعنفوان شخصيتها.

أما رسائل جبران فتشير إلى إعجابه بميّ وبأدبها وبشخصيتها. يقول في رسالة لها في عام ١٩١٩: سلام على روحك الطيبة الجميلة. وبعد فقد استلمت اليوم أعداد المقتطف التي تفضلت بإرسالها إلي. فقرأت مقالاتك الواحدة إثر الأخرى وأنا بين السرور العميق والإعجاب الشديد. ولقد وجدت في مقالاتك سرباً من تلك الميول والمنازع التي طالما حامت حول فكرتي وتتبعت أحلامي، ولكن هناك مبادئ ونظريات أخرى وددت لو كان بإمكاننا البحث فيها شفاهاً. فلو كنت الساعة في القاهرة لاستعطفتك لتسمحي لي بزيارتك فنتحدث ملياً في "أرواح الأمكنة" وفي "العقل والقلب" وفي بعض مظاهر هنري برغسن. غير أن القاهرة في مشارق الأرض ونيويورك في مغاربها وليس من سبيل إلى الحديث الذي أوده وأتمناه".

وكتب لها في العام ذاته رسالة يقول فيها:"هل تعلمين يا صديقتي بأنني كنت أجد حديثنا المتقطع التعزية والأنس والطمأنينة. وهل تعلمين بأنني كنت أقول لذاتي إن هناك في مشارق الأرض صبية ليست كالصبايا قد دخلت الهيكل قبل ولادتها ووقفت في قدس الأقداس فعرفت السر العلوي الذي تخفره جبابرة الصباح، ثم اتخذت بلادي بلاداً لها وقومي قوماً لها. هل تعلمين

بأنني كنت أهمس هذه الأنشودة في أذن خيالي كلما وردت عليّ رسالة منك؟ لو علمت لما انقطعت عن الكتابة إليّ– وربما علمت فانقطعت وهذا لا يخلو من أصالة الرأي والحكمة".

ويقول في رسالة لها في عام ١٩٢١: "... ليس في حياتنا شيء أدعى إلى التفكر والتأمل من الأحلام. وأنا من الذين يحلمون كثيراً، بيد أنني أنسى أحلامي إلا إذا كانت ذات علاقة بمن أحبهم. لا أذكر أنني حلمت في ماضي حلماً أوضح من هذا الحلم. لذلك أراني مشوشاً مضطرباً مشغول البال في هذا الصباح. ماذا تعني رنة التوجع في كلماتك الجميلة؟ وما معنى الجرح في جبهتك؟ وأي بشري يستطيع أن يخبرني مفاد انقباضي وكآبتي؟ سوف أصرف نهاري مصلياً في قلبي. سوف أصلي لأجلك في سكينة قلبي. وسوف أصلي لأجلنا. والله يباركك يا ميّ ويحرسك".

أردت من هذه المقتطفات من رسائل ميّ إلى جبران ومن جبران إلى ميّ أن أشير إلى علاقة من نوع خاص، نوع جميل ومنوع، بين رجل وامرأة، وبين أديبين لم يلتقيا. لكنهما عاشا علاقة إنسانية من نوع رفيع وغني بالأفكار وبالمشاعر.

تركت ميّ تراثاً غنياً من الكتب والكتابات التي تشير إلى شخصيتها الغنية المتعددة. أذكر منها على وجه الخصوص كتابها الذي كرسته لصديقتها "باحثة البادية" وكتابيها عن "وردة اليازجي" و"عائشة التيمورية". وهي كتب تثير فيها بجرأة إلى قضية المرأة في حاضرها وفي مستقبلها. وترافق مع هذه الكتب الثلاثة كتاب تابعت فيه أبحاثها عن قضية المرأة بعنوان "المساواة". يضاف إلى هذه الكتب كتاب "غاية الحياة" الذي تعرض فيه ميّ قراءتها للحياة في معانيها وفي غاياتها. وثمة كتب أخرى تتراوح بين التأملات والقصص مثل "ابتسامات ودموع" و"سوانح فتاة" و"ظلمات وأشعة". وصدر لها بعد وفاتها كتاب يضم أعمالها المجهولة حققه جوزيف زيدان. وهو كتاب يكشف الكثير من كنوز ميّ في أدب الحياة. وأشير هنا إلى عناوين

بعض هذه النصوص في الكتاب تأكيداً لغنى هذه الشخصية الفذة: "كيف نقيس الزمان" و"شيء عن الفن" و"بين العدم والعمران" و"الساعات الأخيرة من سنة ١٩١٥" و"الاضطهادات الدينية عند الرومان" و"كلمة بحث في شخصية طه حسين" و"نظرة في الأدب العربي" و"ثقلاء التاريخ" و"رأس قاسم أمين" و"الحركة النسائية عندنا" و"ريحان الخريف" (قصيدة) و"بين الفاتيكان وجريدة آكسيون فرنسيز". وأكتفي هنا بالاستشهاد بفقرة مأخوذة من الموضوع الذي يحمل عنوان "شي من الفن". تقول مي: "لقد عرف الانسان الفنون قبل أن يعرف العلوم، لأن مخيلته اشتغلت قبل نبّه أفكاره. المخيلة ضيف تائه على الأرض وهي أقوى القوى الأدبية. حركتها لا تبطل أبداً في الحياة، بل هي كالقلب تشتغل دائماً وعملها مستمر متواصل في النوم وفي اليقظة. فيها تحفظ تذكارات الماضي وآثار ما تنقله إليها الحواس من مناظر وأصوا وأنغام وروائح وتأثيرات، ومن مزيج هذه التذكارات والآثار تتكون أصول الفنون، فيأتي التصور والابتكار عاملاً في توسيعها، وزيادة فروعها وإتقان كمالاتها".

عالم ميّ زيادة واسع وغني. ومن الصعب أن تختصر سيرتها وشخصيتها ونتاجها الأدبي ونشاطها الإجتماعي بكلمات. إنها ظاهرة تستحق أن تشبع درساً من أهل الإختصاص في عالم الأدب والإبداع، وفي عالم المرأة. لكن علينا ونحن نشير إلى كل العناصر التي تميز شخصيتها أن عبقريتها قد تفتحت وازدهرت في مصر وطنها الثاني.